الأسباب تُعتبر تجربة الغيطاني أساسية. ولكنّ هذا لا يمنع من أنّ هناك ملاحظات أثْبتّها في رسالتي الجامعية. ومن هذه الملاحظات: أننا نحسّ أن أفق ممارسة نوع من الكتابة الروائية يقود إلى أن يصبح الخطاب الروائي مقيّداً بأنساق أسلوبية لا يفتح حواراً مباشراً مع القارئ العادي. وبالتالي، فنحن حينما نقرأ الغيطاني نجد أنفسنا محكومين بضرورة العودة إلى تفاعل هذا النص مع مجموعة من الخطابات التي توجد في التراث. وهذا وارد، أساساً، في **التجليات**، لأنه بقدر ما يعبّر علاقة الرواية بالسيرة الذاتية، فإنّه يمكن أن يعبّر عن علاقة الرواية بالخطاب الصوفي وبخطاب المشاهدات اليومية... الخ. عكس الغيطاني، فأنا أميل إلى تجربة حيدر حيدر مثلاً، لأن هذا الأخير يخلق لغة شعرية ويقرّبك إلى مناخ أساطيري تستد خلاله أن تدرك بأنّ الذات العربية، ضمن ذلك الأفق الاستلهامي للتراث، هي ذاتٌ لم تتغير عبر تاريخها. وهذا السؤال مطر بحدّة في التجارب التي ذكرتها.

ويبقى أن استلهام التراث السردي من طرف الرواية مكسبٌ أساسي في وقت أغلقتْ فيه الروايةُ الواقعيةُ أفق استثمار هذا التراث، ومن ثمة انحصرتْ في وصف كائنات تبدو هلامية وهشّة لا تمتلك انجذارها ولا تمتلك رسوخَها أو هويتها في الواقع. فجاء التراث في الخطاب الروائي كي يكمل ما كانت تفتقد اليه الروايةُ في علاقتها مع القارئ والواقع والذات.

لبيض : **كنا نهدف في ندوتنا إلى ملامسة العديد من القضايا المركزية في الخطاب الروائي العربي. غير أن الوقت، فيما يبدو، لن يسمح بأكثر ممّا قلناه سابقاً. لهذا أجدني مضطراً إلى التساؤل معكم عن التصوّر الذي يمكن أن نشكّله جميعاً لمستقبل الرواية العربية. بمعنى آخر: كيف ستكون الرواية العربية في المستقبل؟ هل هي رواية سترتكن إلى منجزات الغرب لتضاهيها، أم هي رواية ستستعيد علاقتها مع التراث بصيغ مختلفة عمّا هو متداوَل راهناً، خصوصاً وأنها ستستفيد من الخلاصات العامّة التي سيتوصل اليها النقدُ السردي العربي الذي يشتغل الآن مباشرةً على جسد النصوص السردية التراثية؟**

حليفي : الرواية جزء من نسق ثقافي ينمو وسط حقول وفي ظلّ شروط. وبالتالي، فإنّ مستقبل الرواية قائم في لحظتها الراهنة. ومستقبلها أيضاً رهين بمستقبل ثقافتنا وفكرنا عامّة.

وأعتقد أنّ الواقع التقني الجديد على مستوى الإعلام والتواصل يدفعني إلى القول بأن مستقبل الرواية العربية، نصيّاً، سيعرف إبداعات جديدة في الشكل والدلالة. نقطة أخرى أريد أن أطرحها، قبل أن أنهي كلامي، وهي ضرورة الانتباه لمسألة التواصل مع القارئ في ظلّ كل هذه التصوّرات. فلا بدّ من البحث عن نقط أخرى لتوسيع دائرة تلقّي النّص الروائي وذلك بتزاوج حقول أخرى معها، لأن الرواية قد تضيع في زحمة هذا التقدُّم إذا هي لم تبحث عن كيفيات الاستفادة منه.

القمري : المطروح في نظري، وكما أشار إلى ذلك حليفي، ليس مستقبل الرواية، بل مستقبل الكتابة ككل. فما نعيشه من انهيارات، حتى في الثقافة بالمعنى المجتمعي، يجعل من القراءة مشكلاً مطروحاً. فالمجتمعات العربية مجتمعات لا تقرأ لأسباب كثيرة يعلمها الجميع. والسؤال هو: هل أصبح الكتاب مبرَّراً في ظلّ مجتمع كوني يعيش في إطار الانترنيت والفضائيات وسيطرة خطاب الصورة؟ أمّا بالنسبة للرواية، فإنّ مستقبلها سيكون، في نظري، هو ذاك الاستمرار المتقطع. فالنصّ الروائي ذاته لم يعد هو ذلك النّص الذي يجيب عن الأسئلة الكبرى والمصيرية. بل إنّ النصّ الروائي أضحى لا يتجاوز حدود السؤال الخاص بكل كاتب على حدة. لم تعد هناك قناعات عامّة، وبالتالي فالكاتب الروائي ليس مسؤولاً عن واقعه وإنّما هو مسؤول عن وجهة نظره الخاصة. ولهذا، فكلما استوعب الكاتبُ الروائيُّ ذاتَه ضمن مناخ ثقافي معيّن وضمن شروط ثقافية محدّدة واستوعب العالم من حوله، استطاع أن ينتج نصّاً مقنِعاً بهذا المعنى أو ذاك. ويبقى أن المستقبل هو للرواية الذاتية، تلك الرواية التي تطرح أسئلةً متعلّقة بالذات: الذات هنا بمعناها الميتافزيقي والوجودي. وهذا سؤال مطروح على الرواية بقدر ما هو مطروح على الشعر والمسرح والسينما.

لبيض : **أشكر الإخوة الأساتذة على ما عرضوه من أفكار وتصوّرات أعتبرها شخصياً أساسية لفهم طبيعة تاريخ الرواية العربية ولإدراك صيرورة النص الروائي العربي. أتمنى أن تكون ندوتنا قد ساهمت في تجذير الوعي بأسئلة النصّ الروائي العربي وقضاياه الشائكة. على أن مواصلة تفكيرنا في هذه الأسئلة والقضايا ما تزال قائمة ومنفتحة على لقاءات أخرى.**

المغرب

عربة الموتى

صلاح الدين بو جاه

المسلك ضيّقٌ وَعرٌ حفرتْهُ الدوابُّ في الصخر وأرضِ السبّاخ المالحة، فانحسرتْ عنه نباتاتُ الطرفاء وانداحت على جانبيه شُجيراتُ الشيِّح والسكّوم. البغلة السوداء تجرّ العربة الهزيلة... فتئزّ عجلاتُها على الحصى وتصطكّ فوق خشبها القديم الساقان الجامدتان الممدودتان.

منذ ثلاثين سنة، أَلِفَ قاسم نَقْلَ الموتى من هذه الأرياف البعيدة إلى مقبرة المدينة، يُثبت الجسمَ المسجّى الملفوفَ فوق العربة، يشدّه بحبلٍ من قنّبٍ ضَفَرَهُ بنفسه وأضاف إليه خيوطاً من شعر المعز الأسود القوي... ثم يدخل الليل.

حفظ أغاني البدو، واعتاد أن يُرسل صوتَهُ المقرورَ في الصمّت والظلمة فلا تجاوبه غيرُ الذئاب... وإيقاع مصباحه الزّيتي الصغير ينقر صفيحة المعدن التي تشدّ العجلتين إلى محور العربة. ثم أقلع عن الغناء بعد أن صحبه رفيقُه «ساسي»، منذ ثلاث سنوات، يُجاذبه الحديث... ويأخذ عنه سرّ حرفته... ويعينه على الصقيع والموت:

ـ ألم يَحْدث مرّة، مرّةً واحدة، أن عاد ميتٌ من المدينة!؟

ـ الموتى لا يعودون يا وَلدي، الموتى لا يعرفون طريق العودة!

ـ يروي بعض الناس حكايات شتّى...

ـ ألم تَرَ أهل الميت يُسبلون جفنيه حتى لا يبصر شيئاً؟!

ـ بلى...!؟

ـ من لا يبصر علامات الذّهاب... كيف له أن يرى طريق العودة!؟

ـ أنت تعرف حقيقة كلّ شيء!

ـ ليس الأمرُ أمرَ معرفة...

ـ إذن!

ـ التجربة... التجربة هي أساس كلّ شيء... منذ أكثر من ثلاثين سنة لبثتُ أجوب هذا القفر. لقد نقلتُ موتى كثيرين... عدداً لا يُحصى، عبر السهل المترامي الذي يكتنف المدينة وبساتينها والهضابَ المحيطةَ بها... ولم يحدث أن عاد أيٌّ منهم إلى الريف الذي تركهُ وهو مسجًّى فوق هذه العربة الهزيلة، بعد أن أكون قد لفَفتُه في الحصير وشددتُ القنّب حول قدميه المصطكّتين ولستُ جسده البارد بقطعة الحديد التي تعرف...

حَدَّقَ ساسي في الوجه الداكن بإعجاب: «هذا العجوز واسع الحيلة، تجاربه كثيرة. لقد خَبِرَ الحياة... من النادر حقاً أن يحظى المرء بمثل هذا الحوذي العارف!»

أشعة قليلة تنبعث من نجم خافت تَلْمس وجهَ قاسم ولحفته البيضاء... وتنداح منها بُقعةُ ضوءٍ واسعةٌ فوق قشّابيته الشخماء الوبرية.

يداه السمراوان المعروقتان تمسكان باللجام دون شدّ، البغلة عرفت سبيلها منذ أعوام، لا يدفعها، لا يجذبها... ولا ينهرها؛ إنّما هي العِشْرة... عِشْرةُ الاتّفاق والمصادقة هذه التي تجعلهما يسيران في هذه المسالك الوعرة جنباً إلى جنب؛ ينزلان... يتريّثان، يصعدان نحو غاية يُدركانها وتُدركها العربة... وأضحى ساسي يُدركها أيضاً.

الوقتُ يصنع العِشرة، الصِّعابُ تجعل للكائنات ملامح وألواناً. قاسم ورفيقه والبغلة ومَيْتُ الصُّدفة... أما الميتُ فقامة مديدة، وأذنان مرتدّتان إلى الخلف، وقسمات جامدة منحوتة في وجه طويل أسمر تجعله الظلمةُ في لون البُنّ المحروق، وعينان واسعتان، وعضلات مشدودة متحفّزة على الدّوام... وأما الصوت فلا صوت: غمغمة خافتةٌ تنبثق من هذه الشفاه أو تلك، تتلقّفها الآذان، ويفهمها الليل.

وتلبث العربة القديمة شاهداً على اختلافٍ غيرِ منظور قائم في وقتٍ مّا... في نقطةٍ معلومة غيرِ ثابتة... بين البداية والنهاية!

اصطكّت الساقان الممدودتان فوق الحصير الأخضر الأملس. تباطأ ساسي في لامبالاة، انتظر مرور العربة، ومدّ يده الطويلة يتلمّس القدمين الباردتين.

لاحظ أنهما قد تزحزحتا قليلاً فجازتا طرف الخشبة، فدفعهما إلى الداخل، واجتذب الحبل يضغطه ويُثبت عقدته بين التّجاويف المتآكلة.

ـ ضيفنا الليلة لا يلبث في مكانه!

ـ اتركْه وشأنه يا ساسي... فلينزلقْ يميناً، ولينزلقْ شمالاً، وليتزحزح مثلما يشاء. سوف يعثر في النهاية على الوضع المُريح...

ـ ربطتُ الحبل مرّتين، لكنّ العقدة تنحلّ بسرعة!

ـ للعُقد أحكامُها! اتركها وشأنها... هذا الظلام حولنا رائقٌ عذب... يكادُ يُلمس. لا تفوّت الفرصة.

تذكّر ساسي رحلته الأولى في هذا السهل الفسيح منذ ثلاثة أعوام. كانت الظلمة مثل المخمل، والسماء، بلا نجوم، وصقيع الشتاء ثقيل. أمسك قاسم بكتفيه المرتعشتيْن وحدّق في عينيه وقال:

ـ تعلّم السمعَ والشمَّ واللمس... تذوّق الليل...

ارتعدتْ أوصاله ولم يُجب. أضاف قاسم كالمخاطب نفسه:

ـ حَدّقْ مثل صقر... تشمَّمْ مثل كلب... جُسَّ الليل...

ثم توالت الليالي، فتعلّم ساسي كيف يقاوم الخوفَ والصقيعَ بالخمر... كيف يقف في الأحراش مثل ذئب... يُرهف السمع... يترك أذنيه ممدودتين في الهواء يلفحهما الصقيع وهما تتشرّبان أصوات البوادي: نباحَ الكلاب، هسيسَ الشجر البعيد في الريح، نقيقَ الضفدع، تغريدَ الطيور العائدة إلى أوكارها، عواءَ الجبل المكتوم... ندباً ونحيباً منبثقيْن من هذه الرابية أو تلك.

يُصيخُ السمع، يطول به الوقوف، فإذا ألحّ عليه الصوت سأل كمن يُحدّثُ نفسه:

ـ أليس هذا...

فيُسارع قاسم، وقد أيقن أنهما يظفران بميتِ ليلتهم تلك:

ـ هيّا بنا...

في هذه السهوب النائية يَعْسر تمييزُ أصوات النائحات من أغاني الأفراح والرّقص. لكنّ العربة سرعان ما تندفع نحو الموضع المعلوم.

تعلّمَ ساسي كيف يتشمّم مثل ضبع، وكيف ينثال مثلَ حيّةٍ بين الأجمات والأودية، وكيف يتحمل مرارة السائل الأحمر الثقيل ينزل في جوفه حاداً حارقاً. يبحث عن رزقه وراء الجبل، وقرب عيون الماء، وفي قاع الوهاد والمزالق، بل في تجاويف الصخر. ينظر في الليل، يرى غابة الزيتون خلف الضباب، ويُبصر البوم مُنكفئاً على حزنه فوق الغصن البعيد. لا يخاف عيون السنّور والأرنب البريّ وكلب القطيع...!

لكنّه أمضى الشهور الطويلة يقفو خطى قاسم دون أن يعرف كيف يتذوّق الظلمة!

ـ الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على إدراك عذوبة الليل...

كان قاسم يقول ذلك وقد غَمَرَه فرحٌ واسع، بل أخذته نشوة باهرة. فعاد ساسي إلى نفسي، وفضّل الصمت... يكاد لا يفهم شيئاً!

البغلة تَغُذُّ السَّير، تصعد في المسلك الوعر، وكلّما ارتطمت الجثةُ بالحاجز الخشبي تباطأ ساسي يدفعها براحته في لامبالاة... ويشد الحبل الأسود القوي حول الحصير.

الفتى والشيخ يتحدّثان، والعجلة ترتطم بالحصى وبعض الصخور الصغيرة الناتئة، والليل بطيء شامل.

فجأةً، مثل الحجر يُلقى في الغدير الساكن، تهتزّ العربةُ بقوّة... فتندفع الجثةُ بالحصر الخضراء الملفوفة حولها، تصطك القدمان فوق الحاجز الخلفي... ثم تهوي الجثة هابطةً في الفضاء.

أمسك قاسم باللجام وصرخ:

ـ الحبل... ساسي، شُدَّ الحبل!

كانت الجثة قد اندفعتْ كالنّزق في المنحدر، ولبث الحبلُ في يد الفتى... ينحلّ في سرعة الخذروف... أما البغلة فلقد أجفلتْ وفقدتْ توازنها حتّى كادت العربة تنكفئ بها فوق الصخور... لولا العجوز الذي طوّق عنقها بيده اليُسرى، وقفز في الفضاء يُمسك بطرف الحبل الطائر في الهواء.

كانت الحركة كفيلة بالحدّ من تدحرج الجثّة التي اصطدمتْ بشجيرةٍ طرفاء... ثم انغرستْ، تلفّها الحصرُ، في تلافيف الأغصان... وبقيت منحنيةً مثل جذع نخلة سوداء اجتثها السيل من منبتها.

لكنّ العربة لم تتوقف. واصلتْ تقهقرها... فأضحت البغلة بين قُوّتين: العربة تجتذبها نحو المنحدر، وذراع قاسم المعروقة تمسك بها وتحاول، بلا جدوى، الحدّ من سقوطها!

مدّت البغلةُ عنقها إلى الأمام تروم النهوضَ بحملِها الثقيل. لكنّ تشبث قاسم بها، وتعلُّقَ ساسي بالعربة، وانزلاق

الحصى تحت حافرتيها الخلفيتين، زادتْها إرهاقاً... فتشنّجتْ قوائمُها، وبرزتْ عروقُ عنقها... وحمحمتْ تستعطف «قاسم» المتصبب عرقاً!

جذب الشيخُ الحبلَ الموصول بالجثة حتى جعله بين أسنانه، ضغط عليه بنواجذه، تحرّرت يده اليُمنى... فدفعها داخل الصندوق المثبت أسفل العربة، فلم ينتبه إلى صفيحة المصباح تلتصق بساعده تكويه! وفي لمح البصر اجتذب القارورة الحمراء، فتجرّع منها دفعةً قوية أحرقتْ أحشاءه... ثم رمى بها في الهواء نحو ساسي يتلقّفها على بُعد مترين:

ـ كلّما كانت الخمرة ثقيلة حارقة ذهب خوفك!

لم يُجبه الفتى، وإنما اختطف الزجاجة التي انسكب نصفها في الهواء... والتمعتْ تحت شعاع اللّيل الخافت... ولم يدر ماذا عليه أن يفعل!

لبث في مكانه ذاهلاً، بينما كان قاسم يجدّ في الإمساك بالحبل الأسود بين أسنانه، وذراعه موصولة بعنق البغلة وصدرها... يُفضي اليها بحرارة جسمه الجاف.

حدّقت البغلةُ في وجهه تستجمع قُوّتَها، حمحمتْ من جديد، تطاير الزّبد من فمها حول اللجام والصّدغين... ودون أدنى تنسيق ممكن ارتطمت قدمه بإحدى قوائمها المرفوعة في الهواء، فاستند إليها... واندفعا معاً في المرتفع...

اهتزّت الخشبةُ القديمة فتشبث ساسي بها واقتلع الجثة، الموصولة بطرف الحبل من تجاويف الطرفاء... فغمغمت البغلةِ وهزّت حافرتيها تضرب الظّلمة الثقيلة في مزيج من الخوف والظفر. وصرخ قاسم:

ـ ساسي... اللجامَ... أمسكِ اللجامَ... هذه ليلة الدّرس الأخير!

مرّت ساعاتٌ رتيبة يسودها الصمتُ. أخذ الضبابُ يتقشّع شيئاً فشيئاً، وبعد أن لبثا بُرهة كالمعلّقَيْن بين السماء والأرض، تعاونا على إثبات الحاجز الخشبي بسلك قصير من معدن صَدِئ، وعادت الجثة إلى مكانها فوق الخشبة فشُدّت بالقنّب داخل الحصير بعد أن لمسها ساسي مراراً بقطعة الحديد المعلومة. ثم أقبل الشيخ والفتى على القارورة يشربان منها جرعات قصيرة متتالية تندفع داخل الحلق فتسري في الأوصال رعدةٌ خفيفة سرعان ما تتفشّى في كامل الجسم.

أما تباشير الفجر فقد التمعتْ مع نجمة الرّاعي في الأفق الشرقي. بدا قاسم هادئاً... على وجهه سماتُ الغبطة. نظر ساسي في قاع القارورة وقال:

ـ مُرّةٌ يا صاحبي هذه الخمرة الثقيلة...!

ـ ليست في مرارة الحياة...

ـ أوّلها مُرّ... وآخرها سكر وهذر!

ـ بين الجرعة الأولى والأخيرة حياة أخرى... ثم... لماذا ينبغي أن نبلغ الجرعة الأخيرة؟!

ـ للنشوة أحكامها...

ـ إنّها زادنا في وجه الصقيع والموت...!

قالها قاسم وربّتَ على صدر الجثة خَلفهُ فوق العربة. ثم مسح فمه في كمّه وألقى بالزجاجة فارغةً في الأحراش... وسوّى القشابية على كتفيه... وسكت برهة... ثم عاد يقول:

ـ ها أنت تُصبح ناقل موتى جديراً بالاحترام!

انسابت العربةُ وئيدةً في المسلك الضيّق، وبدت تباشير الصبح، فالتمعتْ أرضُ السباخ ساطعةً في بياض الثلج. وفي الأفق البعيد انبثقت مئذنة المدينة مندفعة في السماء.

بعد حين تتخطّى العربةُ السورَ وتندفع نحو المقبرة باتجاه جامع الغرباء... حيث يُغسّل الميتُ ويُجهّز...

انكفأ قاسم إلى الخلف يتّكئُ على جوالق أمتعته، بينما انسدل طربوش القشابية يُغطي وجهه وصدره. وأمسك ساسي باللجام ومدّ ذراعه إلى المصباح يُطفئه، بينما بدت في الأفق الشرقي بعضُ الأسراب المهاجرة يلتمع ريشها تحت انبثاق نور يوم جديد.

مرّ بالعربة نفرٌ من البدو، على ظهورهم أحمالُ حطب، وهم يتحدّثون ويعبثون، وأفلت كلبٌ من بعض النواحي يَنْشد غايةً غير معلومة، فانقبض صدرُ ساسي، ولم يَدْرِ لماذا مرّت بذهنه مقاطعُ أغنيةٍ كان قد نسيها منذ زمن... منذ الأيام الأولى التي صحب فيها «قاسم» فوق هذه العربة الهزيلة، يجوبان السهول الواسعة حول المدينة... سهولَ الغرباء!

على مشارف الجامع الصغير المنفرد، المتواطئ مع المكان والوقت، حيث يُجهّزُ القادمون من الأقاصي، حانت من ساسي التفاتةٌ إلى الخشبة، فألفى مُعلّمه العجوز منكفئاً على الجثة الباردة يكاد يُعانقها. أيقن أنّ الإرهاق قد أخذ منه مأخذاً، فقال يُعابثُه:

ـ ها أنت تُصبح عجوزاً يُرهقه الليل!

فلم تصدر عن الجُثّتين حركة...

ولا صوت...!

تونس

عابر استثنائي

محمود عبد الوهاب

من بين ورقتيْ شجيْرة الظلّ التي كانت تحملها على ذراعيها المعقودتين، رأتْه. كان يرفع رأسه أحياناً ويديره بتثاقل صوبَ المارة والمباني المحيطة بجانبي الشارع، وينصت ـ وهو في مشيته الواهنة ـ إلى ضجيج التلاميذ من وراء سياج المدرسة. وعندما عَبَر الشارع إلى الرصيف الآخر التفتتْ نحوه، فوجدته يدبّ مطرقاً كأنه يحسب خطواته بانتظام، وكأنّ شيئاً ما في داخله يتكسر. كان يجرجر قدميه مثل حيوان جريح.

في بيتها، وضعتْ شجيرةَ الظلّ قرب النافذة وباعدتْ ما بين شقَّتَي الستارة البنفسجية، فانسلّ ضوءُ الشمس فضيّاً عبر مخمل الستارة إلى الصالة حيث سقطت ألسنته على شرشف المائدة وثلاثة صحون بيض صقيلة، وعلى ملعقة وشوكة موضوعتين على شكل متقاطع في صحن بلوريّ شفاف. وعلى جانبٍ من كتف زوجها بقميصه الأبيض الأنيق وربطة عنقه نصف المفتوحة التوى شيء مقوّس من الضوء كأنه أفعى. قالت: هل نشيخ نحن أيضاً؟

رفع رأسه وقال وهو يمضغ طعامه:

ـ ليس الآن.

ـ لكن، هل نشيخ حقاً؟

تفحص وجهها قليلاً ثم عاد يمضغ طعامه بلامبالاة. قالت: لقد رأيته هذا الصباح.

ـ مَنْ؟

ـ كان كهلاً كئيباً.

هزّ رأسه بينما واصلت هي كلامها: لماذا كنت أحس أنه مختلف؟ كان يقطع الشارع وكأنه يودّع مدينته. هل تعتقد أنه مريض؟

ـ مَنْ؟

ـ الكهل الذي رأيتُه هذا الصباح.

ـ مَنْ يدري؟ لكلٍّ منا مشاكله.

ـ لكنه كهل ليس باستطاعته أن يتحمل مرضه وحده.

ـ إنك تسرفين في الخيال يا عزيزتي.

أجابها وهو يلتقط قطعة اللحم بشوكته ثم عاد إلى تناول طعامه بعصبية ظاهرة.وعندما انتهى من الطبق الذي أمامه أبعده عنه وأسند ظهره إلى مؤخرة كرسيّه، فأنزلقت بقعة الضوء من على صدره وسقطت على أرض الصالة بين قدميه. قال لها: «اسمعي يا عزيزتي، لا بدّ لنا من إحدى النهايتين: إما أن نموت صغاراً وإما أن نعيش حتى نشيخ. هل بإمكاننا أن نفعل غير ذلك؟»

كانت واجمة لا تصغي اليه، وقد أسندتْ خدّها إلى راحة يدها. ولأول مرة لمح زوجُها خيوطاً من الشيب في مقدمة شعرها. أزاح كرسيّه جانباً، ثم قام. ومن مكانه، إزاء المغسلة، قال لها بصوتٍ عالٍ، وفمُهُ مليء برغوة معجون الأسنان: هل كان تعساً إلى هذا الحدّ؟

ـ إنه وحيد، مهموم، يشيخ في كل لحظة.

لم يجب زوجها بشيء. كان قد ترك الحنفية سائبةً يرتطم ماؤها بحوض المغسلة فيُحدثُ أصواتاً مختنقة.

البصرة

بخور

ابتسام عبد الله

إنها الرائحة نفسها، زكيّةً ومكثّفةَ العطر وثقيلة الأثر منتشرةً في أرجاء الغرفة الموصدة النوافذِ والبابِ، تتغلغل في أعماق الروح وتتشبّع بها النفسُ، وتدفعني في كل مرة إلى الجلوس في سكون مأخوذاً بأجوائها وبالسحر الذي تُحْدِثه وتخلّفه في المكان. رائحة شرقيّة حادّة تنبعث من عيدان رفيعة، قصيرة، بنيّة غامقة أو مائلة إلى السواد، تسري وتُشيع في المكان ـ مع دخانها المتماوج الرفيع ـ جواً من الغموض، فتختلط الأشياءُ في ذهني وتدفعني إلى الصمت التامّ والتأمّل.

هل قلت «الصمت التامّ»؟ لكنه ليس التعبير المناسب، فللصمت لغة أيضاً، لغة ساكنة، تصطخب في ثنايا الإنسان وتحمل في تدفّقها قوةَ سريانِ المياه في الأنهار العميقة المنحدرة من أعالي الجبال، وقوّةَ عاصفةٍ لا تَذَر في هبوبها ولا تبقي.

في داخلي تسري مثل هذه اللغة، خافتةً جداً وقويةً جداً، لايسمعها مَنْ يقفمعلى مقربة مني، ولكنها تضجّ على الدوام وتتفاعل وتتصارع فيها الكلماتُ دون توقّف. تهدر صبحاً ومساءً وجزءاً كبيراً من الليل مثلَ نهرٍ عظيم، وتشطرني إلى مئات الأفكار. وعندما تهجع الأشتاتُ المتناثرة وتحاول أن تلتمّ في الهزيع الأخير من الليل أو عند ساعة الفجر، يعاودني الحلمُ الذي يتكرّر في منامي، عندما يبزغ أمامي بغتةً نورٌ عظيم يقودني إلى مكان مهجور، وصوتٌ عميق ينطلق من الفراغ

الأبيض المضيء يهتف بي: «ابحثْ أيها الرجل عن روحك أينما كانت، فأنت بدونها إنسان خاوٍ». وفي تلك اللحظة التي يسكت فيها الصوتُ ويختفي صداه، يتلاشى النور ويتوارى لأغرق في عتمة صافية. هنيهةً ويعود إليّ الوعي، فأصحو من النوم مبلّلاً، في كل مرة، بعرقٍ غزير، يهزّني اضطراب عظيم وخوف مبهم يداخلني ويسوّرني ضمن مداه. تكاد أطراف الحلم المتلاشي تتمسّك بي وتدفعني إلى حالة من التأرجح بين الوعي واللاوعي وبين النوم واليقظة وبين التبلّد والصفاء، حتى أتمالك نفسي بعد دقائق تبدو لي طويلة كالدهر، فأرفع الغطاء عن جسدي المتعب وأترك السرير لأقف أمام النافذة أرقب ساعة السَّحَر وانفصالَ العتمةِ عن الضياء، قبل طلوع النهار.

ها هي روحي قلقة، متأرجحة، منذ زمن بعيد، بين العتمة والنور، تسبح في محيط من ضياء متوهّج، راضيةً وقانعةً حيناً، قبل أن تتكدّر المياهُ أمامي فجأةً وتتلوّن لتسحبَني إلى لجّة سوداء، أضيع بين أمواجها المتعالية، الصاعدة النازلة، دون أن يَسْمع صوتي أحد. وعندما أعود إلى نفسي، مستردّاً روحي، أتامل ما حولي، تتغلغل في ثنايايَ تلك الرائحةُ الثقيلة، العطرة الغوّاصة، رائحة البخور، رائحة تتسلل إليّ ومعها السكينةُ والراحة ومعها أيضاً ملامح امرأةٍ معيّنة، امرأةٍ أعرفها وأكاد أشكّ في نفسي أن أكون قد عرفتها أو تحدّثتُ معها، بل أن أكون قد اقتربتُ منها أياماً وأحسستُ بالتوحّد التامّ معها. معالم امرأة معيّنة، شرقيةِ السّمات، زكيّةِ الرائحة، يفوح من بين ثنايا ثيابها وخصلاتِ شعرها الأسود الطويل والمتهدّل على الكتفين، عطرٌ ثقيلٌ، أشبهُ برائحة البخور. امرأة، أحاولُ اليوم استعادتها بعد أن غابت واختفت وتركت لي منها أثراً لن يُمحى، ثقيلاً لا يتبدّد، مثل رائحة البخور المتخلّفة في مبنى قويم ظلّت العبدانُ فيه تشتعل تعبُّداً أعواماً طويلة، طوال الليل والنهار، حتى تشبّعتْ بها كُلُّ آجرّةٍ من جدرانها وكلُّ ذَرّةٍ من هوائها العطن وتحولتْ إلى أثر متشبّث بالزمن لا يبغي الفكاك عنه.

الصوت العميق يتكرّر ويهزّني بقوة: «ابحثْ أيّها الرجل عن روحك، فأنت بدونها إنسانٌ خاوٍ». وأردّد هذه العبارة مع نفسي، في تأملاتي وفي غُدوّي ورواحي بين دوائر النور والعتمة. وروحي في رحلتها قلقة، فأين مستقرّها وفي أي شيء كمالها؟

وأحمل عيدان البخور وأعدو صوب المقبرة الكبيرة، بجوار النهر، حيث رأيتها أوّلَ مرةٍ وحيث كنا نلتقي. وما إن أبدأ في الحركة، حتى تتوثّب مشاعري، كما في اليوم الأول، ويزحف توتّر مضاعَفٌ إلى أعصابي المشدودة المتعبة، يرافقه خوفٌ وتوجّس وحاجة شديدة إلى تبادلِ حديثٍ حميمٍ مع أيّ إنسان أجده قريباً مني لأبدّد معه لجّةَ الحزن التي وجدتُ فيها نفسي بعد رحيل أخي الصغير.

ومع اقتراب خطواتي من الجامع الكبير، أحاول في كل مرة تهدئة مشاعري ولكنها تتصاعد باستمرار. وعندما أعبر الشارع، أتوقّف دقائق أمام بوابة المقبرة الحديدية، متردّداً، وأنا أقول لنفسي: ها قد عدتَ ثانية بعد طواف طويل في الشوارع البعيدة والقريبة وفي الكثير من الأزقّة الملتوية، ها قد وصلتَ إلى مبتغاك بعد مكابرة، فما الذي تتوقّعه يا رجل؟! لقد رحلتْ واختفتْ تماماً وانزلق بينكما حاجز كثيف غير مرئيّ، موجودٌ دائماً، يرتفع كلّما اقتربت منه ويمنعك من اجتيازه، فما الذي تبغيه من بحثك المتواصل في عالم الوهم؟

وعندما تنتهي تساؤلاتي بعد وصولها إلى النقطة المسدودة التي أعرفها سلفاً، أستدير كما أفعلُ عادةً، متراجعاً عن البّوابة السوداء، عائداً إلى الشارع، لأعبره من جديد وأدلف إلى زقاق ضيّق قصيرٍ، مجاورٍ للجامع الكبير، يقودني إلى زقاق أطول وأضيق، تصطفّ البيوتُ على جانبيه، أسير فيه دون أن أتطلع في وجوه الصبية المتجمّعين في حلقة اللعب ولا في النسوة الجالسات أمام أبواب بيوتهن، يمضين الوقت الطويل في الثرثرة. فأنا أكاد أحْفظ ملامحهم بل وأميِّز أصواتهم أيضاً. أسير باستقامة قامتي، وعيناي مشدودتان إلى الأمام، أنوء بحمل الأفكار التي تنهشني كلّما مضى بي الزقاق إلى الزقاق حتى أنتهي إلى ضفة النهر. عند ذلك تتوقّف خطواتي لأقف متأملاً الحركةَ الأبديّةَ لجريان مياه دجلة الفضيّة، المتعكّرة، وألمح الظلال القاتمة للبيوت وأشجار النخيل المنعكسة عليها والمتأرجحة مع حركتها. وعندما تهدأ أنفاسي وتنتظم، أُثبت عيدانَ البخور في مكان معين من الجرف وأُشعل الجذوة فيها. ومع تصاعد الرائحة، أتحامى على نفسي بعد هدوئها المؤقت وأدفعها نحو طريق العودة، الذي يقودني من الزقاق إلى الزقاق وإلى الجامع والشارع والبوابة شبه الموارية في ساعة الأصيل، التي أدفعها وأدلف إلى الداخل.

المقبرة كبيرة، تمتدّ طولاً وعرضاً وهي تتوسّع مع الأيام، تمتدّ البيوت اليها أو أنها تمتدّ إلى البيوت وتكاد تتشبّث بجدرانها. والأمر لا يشكّل، في بعض الأحيان، فارقاً كبيراً؛ فهناك أحياء أموات خارجها وأموات أحياء داخلها، يُطِلّ الحيُّ على الميت والميتُ على الحيّ، يتبادلان المواقع والتحيات: طبتم صباحاً وطبتم مساءً، وليلة سعيدة هانئة. فقد أصبحت المقبرة واقعاً مألوفاً في الحياة اليومية لسكان المدينة، وهي توشك في طرفها الجنوبي أن تتداخل مع بيوتها العتيقة. وطقوس الدفن والنواح والعويل قد غدتْ جزءاً من الموسيقى المستديمة العَزْف وجزءاً من المؤثرات الصوتية التي تفرزها حالاتُ الحياة المتنافرة. وتتكرّر النغمات المتعاقبة والمتشابهة فيها، وهي طقوس تتفتّح عليها مداركُ الأطفال وتنمو معهم وتتصاعد مع امتداد خط العمر أيًّا كان طوله.

وفي السنوات الأخيرة، احتضنتِ المقبرةُ أعداداً متزايدة

من البشر، ازدحمتْ بهم فأصبحت القبورُ متجاورةً، تكاد أطرافُ الواحد منها تتسلق أطراف الأخرى، وأمسى صعباً على مَنْ يزورها أن يجد طريقه فيها دون أن يطأها أو يقفز من فوقها وهو يلوم نفسه على تجاوز حرمتها. ولكنهم ما زالوا يأتون اليها، متدافعين من كل حدب وصوب، دون أن يعبأوا بحقيقةٍ تقول إنها أخذت كفايتها ولم تعد تتسع للمزيد منهم.

ولأنها باتت متجاورة، فقد اقتربتُ ذات يوم من تلك المرأة حتى لامستُها. فزّتْ من مكانها متراجعةً إلى الخلف. تطلعتُ في وجهها، منتبهاً في تلك اللحظة إلى وجودها. ملامح شرقية، عينان واسعتان، وشعر أسود طويل، وكثير من السحر والغموض والشفافية.

قلت لها في الحال:

ـ آسف، فالمكان، كما ترين، ضيّق جداً.

لكنها لم تجبني. جلستْ على حافة القبر وهي تلملم أطراف ثوبها الأسود الطويل، وأطرقتْ صامتة. وقفتُ بالقرب منها، وحَرَجُ مُبْهم يسيطر عليَّ، حَرَجٌ لا بد أنها تحسه وتجتازه أيضاً، فللأسى العميق طقوس متعلقة بالذات، ليس من السهل البوْحُ به أو التعبير عنه أمام الغرباء، وكنا حتى ذلك الوقت، غَريبين أحدنا عن الآخر.

تسلّل صمت ثقيل الينا، على الرغم من رغبتي الشديدة، آنذاك، في التحدّث مع أيّ شخص كان. فرائحة البخور القوية التي كانت تبثّها عيدان كثيرة، متناثرةٌ في المكان، والتي لم أكن قد اعتدْتها بعد، دفعتْ حواسّي إلى التبلّد والجمود حيناً من الوقت. نظرتُ إليها وكانت هامدة في مكانها، شفّافة الحزن، لا تبدر منها أية حركة، ولولا رقّة جفنيها، لتصوّرتها تمثالاً صُبّ في المكان من مرمرٍ شفّاف. ولما ازداد حرجي، قررتُ الابتعاد عنها، متجاهلاً رغبةً متصاعدة في أعماقي للبقاء والتحدّث معها. وعندما وصلتُ إلى البوابة الكبيرة، التفتُّ إليها، فوجدتها واقفةً في استقامة مثل ظلٍّ شاحبٍ طويل، يرتفع بين شواهد القبور، ما بين العتمة المتساقطة بكثافة والضياء القليل المنحسر عن المكان.

تعلّقتْ تلك الصورةُ ببالي في اليومين التاليين ولم أستطع، على الرغم من محاولاتي، إبعادها. وفي اليوم الثالث، وجدتُ نفسي، بعد طواف طويل، ومكابرةٍ وعناد، أقف أمام البوابة الحديديّة الموارِبة في ساعة الأصيل، أدفعها بلطف وأسير، يسبقني شوق مبهم، أحاول تبريره لنفسي بالفضول، حتى وجدتُها واقفةً في المكان نفسه وكأنها لم تبرحه منذ أن فارقْتُها قبل يومين.

وتكرّر الأمر معي في الأيام التالية حتى أصبحت المقبرةُ والمرأةُ والظلُّ الشاحب الطويل الذي هو آخر ما أراه منها، هاجساً يثقب أيامي ويدفعني إلى تتبّعه بإصرار، أريد أن أعرف سرّه، ناشداً هدوءَ النفس والروح.

وذات أصيل، لم تكن المقبرة ساكنة، كعادتها، في مثل تلك الساعة من النهار. فعلى مسافة غير بعيدة منا، رأيتُ مجموعةً من النسوة واقفات أو قاعداتٍ، تنوح كل واحدة منهن أو تصرخ، وهن يضربن في الوقت نفسه بأكفهنّ على صدورهنّ المحمرّة ـ المزرقّة، في مشهد يثير الألم. بقينا (أنا وهي)، نرقبهنّ من مكاننا، وعندما هدأتْ سَوْرَةُ الحزن والأسى العميق، افترشن الأرض ثم أشعلن الشموع حول أغصان الآس، يرفرف عليهن صمتٌ تقطعه آهاتُ نشيج مكتوم. وعندما قُمنَ من مكانهنّ، عدا واحدةً منهن آثرت الجلوس، تشكّلتْ أمامي صورةٌ فريدةٌ: عباءاتٌ ترفرف بين شواهد القبور مثل الأشرعة وهي ـ في اتساعها وطولها وتدرّج ألوانها بين الأسود القاتم والأسود الكالح وحركة الهواء بين طيّاتها ـ ترسم لوحةً لها أبعادها؛ عباءاتٌ عريضة، منسدلة، وقرص الشمس الزاوي المائل إلى الاحمرار، وشواهدُ حجريّةٌ سوداء، بيضاء، وأعلامٌ كالحةُ اللون، ولافتاتٌ سود موشّاة بالخطوط، وأشجار متفرقة، وذراتُ التراب المتطايرة في الهواء، وفروعُ الآس الأخضر، وألق الشموع، ممتزجاً ذلك كله برائحة البخور القويّة الزكيّة.

قلتُ وكأنني أحدّث نفسي، منبهراً بما رأيت:

ـ شروخ الروح واهتزازاتها، مَنْ يسجّلها ومن يداويها؟

رفعتْ رأسها إليَّ، وللمرة الأولى أجابتني بصوت رقيق وكأنها لم تعد تغالب الصمت الطويل:

ـ بعض شروخ النفس وانشطاراتها أعمقُ من أن تُداوى.

لم أُجبْها. إذْ كان مجرّدُ سماع صوتها بعد الصمت الوطيل مفاجأةً شلّتْ لساني. وشجّعها سكوتي على مواصلة الكلام، فأضافتْ بعد دقائق، وكأنها تقرأ قصيدةً اعتادتْ ترديد أبياتها:

ـ قنبلة انفجرت بين يديه، تناثر في الهواء وذاب في الحال كما تذوب قطعةُ السكّر في ماء مغليّ، و...

الصرخات الحادّة التي انبعثتْ من امرأةٍ في الجوار، قطعتْ حديثها. رَنَوْنا إليها. كانت المرأة واقفةً، ملتفّةً بعباءتها المتربة، وقد حلّتْ ضفيرتيها الرماديتين وشقّت ياقةَ ثوبها الأسود وهي تنوح.

رحنا نرقبها، وكلماتُها تنحدر إلينا دون انتظام:

ـ رحل ولم ير شيئاً. كان ولدي أصغر من أن يموت. ذلك اليوم، وقبل عودته إلى الجبهة، احتضنني وهو يقول: «إنني خائف يا أمي وأخشى أن لا أعود إليكم». ثم ضحك وهو يضيف: «اهتموا باللافتة السوداء، علّقوها في الشارع القريب من مدرسة البنات، اهتّموا بها ولا ترفعوها من